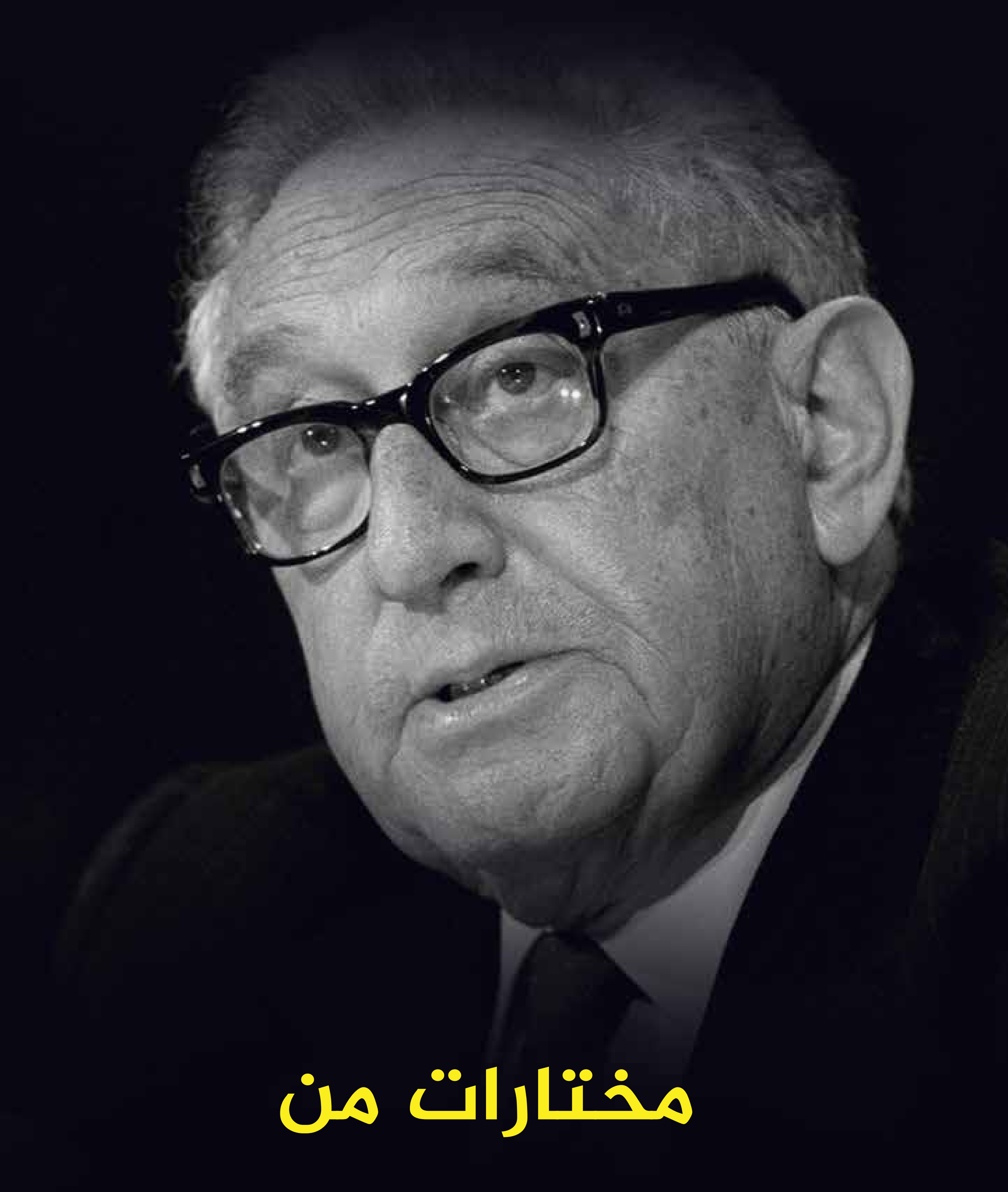
كتاب مجلة " كَلِمَةُ حَقّ " (٢١)
هدية العدد (٣٢) من مجلة " كَلِمَةُ حَقّ " مارس - ٢٠٢٠



مختارات من

(مذكرات هنري كيسنجر)

(الجزء الأول)

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق" بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الثاني

آفاق مؤرخ

إذا كان التاريخ يعلمنا شيئًا فهو عدم وجود سلام دون توازن، ولا عدالة دون اعتدال، وأعتقد كذلك أن ليس هناك أية أمة تتمكن من مواجهة أو تحديد خياراتها دون تقدير خلفي من خلال حقائق غامضة وليعطي معنى لتضحياتها.

وبالنسبة لرجل دولة ليس معياره فقط عظمة أهدافه، بل -أيضًا- الكوارث الممكن تجنبها، والبشرية لن تعرف أبدًا مما تخلصت؛ لأن هناك رجالاً يعرفون أية أخطار وكوارث جنبوها، وهذه الأخطار تظهر عديمة الجدوى حال اعتزالهم السياسة.

وبالحقيقة فـــإن السياسة ليس لها نقــاط استدلال دون الفلســفة، لكن الإنسان إذا لم يجازف في حال الشدة ولم يجرؤ على اجتياز بعض الخطوات الفاشلة فإن البشرية لن تعرف أبدًا السلام.

إن التاريخ لا يعرف وقتًا للراحة ولا التوازن، وكل المجتمعات التي يصفها مرت بمراحل انحطاط وزال معظمها، لكن رجل الدولة بين الصدفة والحقيقة يتصرف بحدود قيادية تسمح له بصبر ووضوح بإجراء خيارات وصنع مستقبل شعبه، وعدم التعرف على الأهداف الموضوعية خطر، والتحول عنها إلى المزايا التاريخية المحتمة يقابل اعتزالاً خلقيًّا، وهذا يعني إغفال القوة والأمل والإبداع التي حمت البشرية طوال الأجيال.

إن مسؤولية رجل الدولة هي محاربة الأشياء الوقتية دون البحث في الحصول على ربح أبدي، ولو عرف أن التاريخ عدو الاستمرار، فليس من حق الزعيم السياسي

الاستسلام وشعبه ينتظر منه أن يقاتل وينشئ ويعارك ضد التأخر الذي يهدد كافة المؤسسات البشرية.

عندما استلمت وظيفتي -منصب مستشار لشؤون الأمن في عهد الرئيس الأمريكي نيكسون- كانت حرب فيتنام تهدد بإحداث كره جديد وشديد للشؤون الدولية، يدفع أمريكا إلى الانعزال لتضميد جراحها ومناهضة زعمائها.

هذا خطر جدًّا، بل أكثر من مسرحية فيتنام، كدنا نسقط مجددًا في هذه الحلقة الجهنمية من نمو دخل قومي مفرح وانعزالية كئيبة تصنع تاريخنا.

وسنتخلى هذه المرة عن عالم أكثر تعقيدًا وأكثر خطرًا، وأكثر صلة بأمريكا من عالم أعوام **١٩٣٠**.

ركزت حكومة نيكسون همها على وضع أسس سياسة خارجية عامة، مع وضع حدود للتدخل في فيتنام، فلن نكتفي فقط بمواجهة الأزمات كما كان عليه الأمر في سنوات **١٩٦٠**؛ لأنه هذه الأزمات كانت تتكشف عن مشاكل أكثر عمقًا، وخطأ عدم حلها السريع جعلها لا تقاوم.

دفعنا تفاؤلنا المفرط إلى فك ارتباطاتنا وعزلتنا، وكنت أعتقد أن رؤية صحيحة لمصالحنا القومية ستكون بمثابة حاجز وضمان لإكمال سياستنا، وعظمة أهدافنا لم تكن تسمح لنا بعدم المسؤولية، وكان عليها بالعكس تشجيعنا وتقويتنا وبيان الطريقة الصحيحة الواجب اتباعها.

حينئذ فقط كنا قادرين على الإسهام في خلق أسلوب منظومة دولية، أخطارها، تعهداتها، وأهميتها، كلها كانت دون سابقة في التاريخ.

أخطر تغيير في عصرنا هو طبيعة السلطة، وحتى بدء العهد النووي لم يكن

ليعقل أن دولة تستطيع وضع أكبر قوتها العسكرية لاستخدامها المباشر على الصعيد السياسي، وإحضار قوة إضافية كان نافعًا سياسيًّا على الأقل على الصعيد النظري.

وظهور السلاح النووي كـــان يجب أن يضع حدًّا لهذه المبادئ التقليدية، يمكن لبلد قوي من الآن وصاعدًا تدمير عدوه، ومع ذلك فهو لا يكون على مستوى حماية شعبه ضد هجوم متوقع.

ومن سخرية التـــاريخ أن ازديادًا عظيمًا فـــي القدرة يبـــدد ارتباط القـــوة السياسية، ومن الآن فصاعدًا فإن القدرة النووية الكبرى تتمكن بالتبادل من تخريب بلدها.

وتجد من المتعب استعمال قدرتها لتسوية المشاكل المحتملة بالوقوع، وسيكون لديها وسيلة إحباط التهديد المباشر ضد وجودها، ومن غير الضروري استخدام هذه القدرة لفرض إرادتها ويصبح صعبًا استخدام هذه القدرة لفرض إرادتها، ويصبح صعبًا استخدام القدرة كتهديد مجدٍ، حتى ضد البلدان غير القادرة على الثأر.

وقد ازدادت القدرة المتعاظمة ضد الدول المحمية من القنبلة النووية، لكن الخوف الناتج عن قدرتها كان قد قوّى كبتها، والرعب المتعاظم الذي توحيه هذه القدرة غيّرها إلى تصور مجرد، لا يمس ولا يحجز.

كانت سياســـاتنا العسكرية تقـــوم علـــى ردع ذلك، إلا أن هـــذه نظرية بسيكولوجية تتعلق تحديدًا بأن الهجوم المتوقع يعد خطرًا غير مقبول. تؤخذ الخدعة بالاعتبار في عهد النواة، واعتبار التهديد -أيضًا- خدعة يمكن أن يكون له نتائج مفجعة. وبقدر ما يكون الردع فعالاً بقدر تعاظم الرغبة في دوام السلام خوفًا من اندلاع حرب، وليس بدعًا أن تتضاعف التحركات السلمية عندما يظهر السلام متوطدًا، لكن إذا كان الردع فعالاً بحق فمن الخطر علينا تبديد القوى والمعطيات التي يرتكز عليها هذا السلام.

إن الأسلحة النووية أكدت القوة السياسية لعالم منقسم إلى مجموعتين، ومحافظو التوازن في القرن التاسع عشر كانوا على استعداد لتبني هذا الرأي مع الأوصاف المستحدثة لبنيان القدرة، أما مسؤولو القدرات العظمى للنصف الثاني من القرن العشرين قلما يعتقدون في تنظيم هذا التوازن السياسي.

أما اليوم وقد دخل التوازن بين القوى المتعاظمة وبعد أن أصبح العالم ثنائي القطب، فإنه (العالم) خسر -أيضًا- معنى فروق الآراء، وكل تقدم يحصل عليه أحد القطبين هو بمثابة خسارة حتمية للقطب الآخر، وكل قضية تظهر موصلة إلى مشكلة حياة أو موت تصبح معها السياسة صلبة وتؤسس العلاقات على عدم الثقة.

في الوقت ذاته وبنوع غريب جدًّا، شجعت ثنائية القطب ولم تقلل من انتشار القدرة السياسية في المستوى العالمي، أما البلدان الصغرى فقسمت بين حاجة الحماية ورغبة الإفلات من تسلط القدرات الكبيرة.

وفي حال ارتياب هذه الدول في نية إخوتها الكبار في التضحية بأمنها في سبيل دوام عيشها، فإن هذه البلدان الصغيرة رغم تحالفها تمكنت من إيجاد الوسائل التلقائية للدفاع، وإذا لم يخالجها الريب في هذا العون فإنها مدعوة لسلوك سياسة أجنبية مستقلة حتى لو استهانت بأماني شركائها.

وهكذا فإن تحدي شارل دي غول الجريء للولايات المتحدة، يعكس حتمية اعتقاده بأن الولايات المتحدة ستجبر على الدفاع عن فرنسا في حال هجوم سوفيتي، أكثر من خوفه العكسي الذي كان يتصوره قبلاً، وهكذا فإن الشعوب الحديثة أظهرت مهارة فائقة في تحدي القوى العظمى بالرغم من تسلط هذه الأخيرة المتزايد.

الفصل السادس

السياسة الدفاعية والتوازن الاستراتيجي

على مدى التاريخ يمكن أن نقول: إن النفوذ السياسي لدى الشعوب كان مرادفًا لقوتها العسكرية، وإذا كانت القيمة المعنوية وعظمة المنشآت تقدر على التمييز بين الدول، فإن المهارة الدبلوماسية لا تستطيع سوى تنمية القدرة العسكرية لا أن تحل محلها، وفي آخر المطاف فإن الضعف يدعو دومًا إلى التعدي، والنقص في القوة يؤدي دومًا إلى التنازل عن القدرة السياسية.

وانطلاقًا من هذا يمكن القول: إن البحث عن القدرة ليس سوى بداية السياسية، ولا يمكن أن يكون غاية بذاته، وإذا لم تكن القوة بجانبها فإن جميع الأهداف مهما كانت شريفة بحد ذاتها توشك أن تسحق من قبل الأنظمة لدى الآخرين.

كنا نعتقد طيلة أكثر من قرن أن لا حاجة بنا للاهتمام بالمشاكل الاستراتيجية، ما دام محيطان يحميان حدودنا، وتخيلنا لقاء ذلك من قدرات كبيرة أخرى كنا نلزم أنفسنا بها بفضل سلامة تحركاتنا، وبما أن أهميتنا في العالم كانت مستقلة عن قدرتنا المادية وكان لدينا الميل إلى ترك عزلتنا والانخراط في التزامات مفاجئة، كانت غاية جميعها أدبية، حتى إن جهودنا العسكرية كانت معنوية، وكانت ترتكز كثيرًا على المنطق الرمزي أكثر مما هو على الجغرافية السياسية، وعندما كنا نخوض حروبًا كان علينا بوجه عام كسب الانتصار في وسائلنا أكثر مما يكون سبب الغلبة من جرأتنا أو مهارتنا الاستراتيجية.

نحو أواخر عام **١٩٦٠** دخلنا في حالة من الانعزال وتثبيط العزائم بسبب تداعيات الحرب طويلة الأمد، كان يدعو البعض منا لتفسير مشاكلنا بالتزام مفرط نحو العالم كله، وكانت الانتقادات بادئ ذي بدء مصوبة نحو نزاع فيتنام، لكنها سرعان ما امتدت إلى جميع مناهجنا الداخلية والتزاماتنا العسكرية، والأوساط وثيقة الاطلاع، التي كانت

ركزت على التزاماتنا الحكيمة بعد الحرب أخذت تشجبها بشدة.

وكان هذا يهدد بلدنا وأقوام حرة أخرى في حالة من الضعف كسياسة أوروبا الثابتة واليابان، أضف إليها مستقبل بلدان أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا التي هي في طريق التنمية كانت كلها منوطة بموقف الولايات المتحدة، فهل كان يملك هؤلاء القدرة اللازمة للوصول إلى أهدافهم؟ هل كان يمكنها الظهور بمظهر المقتدر على الدفاع عن مصالحها ومصالح أصدقائها؟ وإذا قلصت حرب فيتنام قدرتنا عن الدفاع عن أمن الشعوب الحرة، فإن ملايين الكائنات الحية ستكون في خطر.

ولسوء الحظ وفي الوقت الذي كان فيه تقدمنا التكنولوجي ترافقه جهود سياسية حكيمة وحقيقية يؤديان إلى توازن استراتيجي، وجدنا أنفسنا منشغلين بأعقد مشاكلنا الداخلية، وتمتع الاتحاد السوفيتي طيلة فترة بعد الحرب بأعظم تقدم في مجال الأسلحة التقليدية، ومع ذلك فإن القدرات العسكرية السوفيتية كانت تشكو من عائقين:

- مجال عملها كان مقيدًا نسبيًّا؛ لأنه كان محددًا بالمناطق المجاورة للاتحاد السوفيتي.

- والتفوق الأمريكي في مجال الأسلحة الاستراتيجية النووية كان ساحقًا، لم يكن باستطاعة الاتحاد السوفيتي استغلال تقدمه المحلي خوفًا من أن يجد نفسه مجابهًا بتفوق الولايات المتحدة النووي، ولأجل هذا فإن الاتحاد السوفيتي ما خلا بعض انفجارات غضب شديد لم يستعمل قط أسلحته التقليدية ضد البلدان المتحالفة مع الولايات المتحدة.

في أواخر عام **١٩٦٠** كادت القوتان الاستراتيجيتان النوويتان لدى الفريقين تتوازيان، إن استراتيجية الدفاع التي أعدت في زمن تفوقنا كان يجب إعادة النظر فيها في ضوء الحقائق الجديدة، فإن نزاعًا نوويًّا مهما بدا صغيرًا يتمكن من قتل عشرات الملايين من البشر في الولايات المتحدة وغيرها.

وكانت الأسئلة التالية تطرح نفسها: كيف نستطيع ضمان استقلال وثقة البلدان المتحالفة المهددة من قبل أسلحة الاتحاد السوفيتي الأرضية (الآخذة بالنمو) ومخزن أسلحتها النووية المتكاثرة؟ وأي استراتيجية يجب علينا اتخاذها لأسلحتنا الذرية؟ وإذا حرب نووية حرارية إبادية أصبحت واقعة لا محالة، فهل استخدام الأسلحة النووية يكون ممكنًا؟

إن الإجابة على الأسئلة السابقة صعبة جدًّا في أحسن الظروف.

كان الاعتقاد السائد في أن برامجنا هي التي تثير ردود فعل السوفيت لا العكس، وعندما كانت الحكومة تؤكد أن تنمية السوفيت العسكرية هي التي تفرض علينا مشكلة دفاع حقيقية كان هذا ينقلب إلى سخرية واتهام بنشر دعاية للبنتاجون، التي كانت تعود كل عام إلى المسرح لتقوية تنفيذ قرارات موازنة الكونغرس، وفي إحدى المؤتمرات خلص إلى أن الولايات المتحدة توشك أن تكون مهووسة بقضية الأمن القومي.

وهكذا عندما أصبح التكافؤ النووي متحققًا تقريبًا توصلت الانتقادات إلى نتيجة مذهلة وهي وجوب تخفيض قوانا التقليدية.

في غمرة هذا الاضطراب عزمت أنا وفريق معاوني استنادًا إلى تأييد تام من قبل الرئيس على إعادة النظر في العقيدة العسكرية، وكانت غايتنا جعل أنفسنا قادرين على التصميم والدفاع عن أهدافنا العسكرية، ضمن مبادئ معقولة وتعديل استراتيجيتنا بموجب حقائق جديدة، ومحاولة تخليص النزاع العام من كل رد فعل حساس.

وكان أول أهدافنا تحديد استراتيجيتنا حال اندلاع حرب نووية عامة بموجب التدمير الحقيقي الذي كانت اتخذته الحكومة السابقة، وبهذا نردع السوفييت عن الهجوم، محتفظين بقدرات هجومية قادرة على الحصول على نسبة مئوية من الإفناء البشري

والتدمير الصناعي.

إن الاستراتيجية لم تكن تهدف إلى تدمير صواريخ أو قاذفات قنابل العدو، وهدف كهذا كان يربط بنية قدرتنا العسكرية بدرجة تنمية القدرة المعادية، وهذا ما كان يريده أنصار التدمير الحقيقي تجنبه، وفي الحقيقة فإن عدد الأسلحة النووية المطلوبة للوصول إلى ذاك التدمير العظيم كان ثابتًا وقليل الأهمية.

وبكل استغراب فإن مبدأ التدمير الحقيقي الذي اتخذه شعارًا الأنصار الليبراليون لتحديد التسلح، ولأسباب تدعو إلى خير البشرية، كانت هذه الأسباب تفرض استراتيجية حربية بعيدة عن الإنسانية، والبرهان على ذلك هو أنه بقدر ما تكون نتائج الحرب مخيفة فبقدر ذلك نبتعد عن محاولة الالتجاء إليها، وبقدر ما ستكون قابلة للسيطرة عليها، فبقدر ذلك يكون الخوف من اندلاعها.

لم يكن من الجائز إجراء تهديد متبادل بالتدمير لغايات ردعية، ولا سيما في حالة تهديد مباشر لبقاء أمة، ولم يعرف أي رئيس أن يجعل تهديده قابلاً للتصديق إلا باتباعه دبلوماسية تتطلب حالة عامة مخالفة للمنطق.

وهذا كان في المقابل ناتجًا عن منهجنا السياسي الذي كان يتطلب منا أن نظهر للعالم صورة اعتدال وحكمة هادفة.

إذا لم ينجح الردع ووجد الرئيس نفسه مجبرًا على الاقتصاص فمن يتحمل المسؤولية الأخلاقية من استخدام استراتيجية تتركز على الإفناء الجماعي للبشرية؟ وكيف يمكن للولايات المتحدة من المحافظة على تماسك حلفائها في حين أن تصديق استراتيجيتها كان يتداعى؟ وكيف نتمكن من مجابهة الروس إذا كانوا يعتقدون أنا نؤسس استراتيجيتنا على إفناء البشرية.

طالما أن المشكلة النووية لم تجد طريقة لحلها، وربما لن تجد سبيلاً إليها، توصلنا

عام **١٩٦٧** إلى تكيف حقيقي في فكرتنا الاستراتيجية ظهرت نتائجه سريعًا في سياستنا الخارجية.

والنظريات الاستراتيجية المقترحة هي:

- النظرية الاستراتيجية الأولى:

الحفاظ على قوى تقليدية في سبيل دفاع مبدئي، (**٩٠** يومًا) عن أوروبا الغربية، ضد هجوم سوفيتي كبير، وفي آن واحد لمساعدة (بعون منطقي وبقوات قتال أمريكية محدودة) كل بلد متحالف في آسيا، ضد تهديد غزو صيني آخر واسع المدى.

- النظرية الاستراتيجية الثانية:

الحفاظ على قوى ذات كفاءة، سواء لدفاع مبدئي عن حلف شمال الأطلسي، أو الدفاع ضد هجوم عام من الصين في كوريا أو جنوب شرق آسيا، وبكلام آخر لم نحتفظ بقوات تتمكن من القتال على مستوى عال في أوروبا وآسيا دفعة واحدة.

- النظرية الاستراتيجية الثالثة:

الحفاظ على قوى أمريكية لدفاع مبدئي عن حلف شمال الأطلسي، أضف إليها دفاعًا عن كوريا وجنوب شرق آسيا ضد هجوم عام من قبل الصين، وكان على هذه القوى أن تكون ذات كفاءة لمواجهة التهديد الخطير الناجم عن أعضاء حلف وارسو أو الصين في آن واحد.

من خلال جهودنا للتنسيق بين المبدأ والكفاءة، اخترنا ما يمكن تسميته بل وصفه باستراتيجية "حربين ونصف" بما معناه أننا سنحتفظ في أيام السلم بقوات ذات هدف عام قادرة في آن واحد على مواجهة هجوم شيوعي هام سواء في أوروبا أو آسيا، ومساعدة حلفائنا في حال تهديد غير صيني في آسيا، والتفوق مع الاستعداد لكل خطر محتمل الوقوع في العالم.

الفصل السابع

جرح يأبى الشفاء

حتى اليوم لا أتمكن من الكلام عن فيتنام دون إبداء ألم وحزن عميقين.

في بداية استلامنا الحكم (حكومة نيكسون) كان أكثر من نصف مليون أمريكي يقاتلون هناك على بعد ١٦ ألف كيلو متر من بلادهم، وهذا العدد كان في تعاظم بموجب خطة رسمها أسلافنا، ولم يكن باديًا في الأفق أية فكرة انسحاب لقواتنا، وكانت خسائرنا في ارتفاع حتى وصلت إلى واحد وثلاثين ألف رجل، ومهما كانت غايتنا من هذه الحرب فإن قابلية تصديقنا لما يجري خارج حدودنا عام ١٩٦٩ وإمكانية قيامنا بتعهداتنا وتلاحم شعبنا كانت كلها مهددة بقتال كنا نخوضه في بلد بعيدا عنا جدًّا، وأخذ الرأي العام ينكر علينا خوض حرب، ليس فقط لن ننتصر فيها، بل -أيضًا- لا نستطيع إيقافها.

عندما استلم نيكسون الحكم فإن الذين كانوا مبدئيًّا مع التزامنا في فيتنام أصبحوا في صفوف المحايدين، ثم التحقوا بصفوف المعارضة، ناسبين إلى نيكسون مسؤولية حرب ورثها، ويتهمونه بحلول لم يتخذوها أو يطبقوها هم عندما حانت لهم الفرصة.

عزم نيكسون منذ بداية توليه الحكم على وضع حد لالتزامنا في فيتنام، لكنه اصطدم سريعًا بالحقيقة التي كانت قد دمرت سلفه، علمًا بأنه منذ ما يقرب من جيل فإن أمن وتقدم الشعوب الحرة كانا يتوقفان على الثقة بأمريكا، وكيف السبيل للخلاص من مغامرة غاصت في مستنقعها حكومتان وخمس دول متحالفة.

إن الهيجان الشعبي في البلاد الذي يسببه الخلاف حول القضية الفيتنامية

أتعبني جدًّا، ولم أوافق على عدد كبير من القرارات التي أوصلتنا إلى مأزق الهند الصينية، غير أني كنت أقدر أن تعييني في هذا المنصب الخطير، كان يفرض عليّ واجبًا أن أضع حدًّا للحرب بطريقة تتماشى مع عظمة أمريكا، ومع الفكرة التي كان يتمتع بها كل الرجال والنساء أصحاب الإرادة الخيرة، من احترام لقدرة أمريكا والأهداف التي كانت تسير بموجبها.

ومن الأمور الجوهرية ألا تذل أمريكا ولا تتحطم، لكن يجب عليها مغادرة الأراضي الفيتنامية ضمن شروط يعتبرها خصومها مستقبلاً خيارًا قوميًّا أقدمت عليه أمريكا في ظل كرامتها واحترامها لنفسها.

مع قدوم شهر تشرين الثاني لعام**١٩٦٣** روعني الدور المباشر الذي قامت به الولايات المتحدة وبصورة مكشوفة في إسقاط رئيس فيتنام الجنوبية "نغودين دييم" والتسبب في مقتله، لقد جرنا هذا الطيش إلى الطريق الذي لا نعرف أين توصلنا بتهديمنا الأساس السياسي اللازم لها.

إن المكاسب الحربية بعد إسقاط دييم لا تعادل خسارة النفوذ السياسي.

عند بدء المفاوضات أعلنت عن وجهة نظري في نهاية عام ١٩٦٨ وكانت كالتالي:

- إن استراتيجيتنا العسكرية غير قادرة على الوصول بنا إلى النصر.

- يجب علينا توجيه عملياتنا العسكرية نحو أهداف تؤدي إلى مفاوضات دقيقة وواضحة.

- لن يكتب البقاء لحكومة فيتنام الجنوبية إلا إذا قامت بإعداد منهاج سياسي يتمكن الفيتناميون الجنوبيون غير الشيوعيين من الاشتراك فيه.

- على الولايات المتحدة أن تعهد للفيتناميين الجنوبيين بمسؤوليات مكثفة في إدارة الحرب.

- إذا استمرت الحرب يجب علينا السعي في الوصول -ومن جانب واحد- إلى الظفر في أكبر عدد من أهدافنا.

- علينا تركيز جهودنا إبّان المفاوضات حول الأمور العسكرية، ومنها وقف إطلاق النار مثلاً، تاركين للفرقاء الفيتناميين موضوع تقسيم السلطة السياسية.

مع حـــلول عام **١٩٦٩** كانت الأمور تــبدو أنها وصلت إلــى طريق مسدود، وكانت طريقة العدو الحربية تتوقف على إيجاد أكبر شعور ممكن من عدم الاستقرار، دون البحث في احتلال أية أرض تصبح هدفًا لهجوم أمريكي وتجره بالنتيجة إلى خوض معركة نظامية.

الفصل الثامن

الشرق الأوسط والاستراتيجية الأمريكية

لم أكن أعرف الشيء الكثير عن الشرق الأوسط عند استلامي الوظيفة، وما اعتدت أبدًا على طريقة المفاوضات في الشرق الأوسط، وخلال حفلة عشاء أقيمت في شهر شباط من عام **١٩٦٩** في سفارة بريطانيا العظمى، سمعت ولأول مرة صيغة أساسية للعلاقات الدبلوماسية في هذه المنطقة، حين أعاد أحدهم إلى الأذهان تلك العبارات الخاصة بالقرار رقم **٢٤٢** الصادر عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وأتبعها ببعض كلمات حول ضرورة إقامة سلام عادل وثابت بموجب الحدود الآمنة والمعترف بها، فظهر لي ذلك وكأنه كليشه، وتجاسرت فاتهمت قائلها أنه يهزأ بي، وحين سنحت لي الظروف بترك منصبي، أصبحت خبيرًا في شؤون الشرق الأوسط.

وحتى عام **١٩٦٩** فإن اتصالاتي الشخصية الوحيدة مع هذه المنطقة كانت عبارة عن ثلاث زيارات قصيرة خاصة إلى إسرائيل في عام **١٩٦٠** لا سيما زيارتي لكيبوتز جينوسار حيث كان يعيش إيغال ألون الذي كان أحد تلامذتي عندما كنت مدير معهد العلاقات الدولية في هارفارد **١٩٥٧**.

كانت مزرعته موجودة قرب شواطئ بحيرة طبريا، وكل بوصة من الأرض مزروعة جيدًا، احتلت بالعقيدة والألم، في محيط معاد، وبالرغم من جميع النزاعات إن السلام في الشرق الأوسط ليس هو فقط ضرورة طبيعية، بل -أيضًا- إنجازًا روحيًّا، ولم يخطر ببالي أبدًا أن أنضم يومًا إلى هذا النضال.

في وسط هذه الصحاري والجبال المنعزلة، حيث نشأت ثلاثة من أكبر ديانات العالم، جميل بالمرء أن يطلق لنفسه العنان أفضل من أن يضع منظرًا طبيعيًّا جدًّا للتخيلات الإنسانية، والأقوياء وحدهم يستطيعون العيش في شروط جغرافية ومناخية معادية كثيرًا، ليست الطبيعة هي التي تبعث القوة إنما هي العقيدة والعلاقات الإنسانية، ولا

يوجد في مكان آخر مجموعة من الزعماء ذوي شخصيات جد مرموقة، وكذلك لا نجد تجارب لرجال الدولة أنفسهم، الذي يقومون بأدوار حاسمة، إن الواحد منهم مرتبط بأمثاله بالعقيدة كما أن لكلماتهم أهمية فاصلة.

وسواء مال العرب إلى تفسيرات إسرائيل لتلمودهم، أو إلى قصائدهم الملحمية فإن الخطة واضحة، وقد يتخذه الغرب النفعي ذريعة تجريبية، تنشأ في مجال بلاغة مندفعة وإلهام إنساني، ويا لتعاسة الغريب غير اللبق الذي يضع في آخر رسالته فيضًا من الوعود الشفوية، ويحاول إيجاد الحلول، مطالبًا الفرقاء بما يريدون فعلاً، وأن ما يريده فرقاء النزاع في الشرق الأوسط موجود في أعماق مزيج من التجارب والأحقاد والأماني، بواقعية متصاعدة وصعوبة المفاوضات المعقولة لا تقدر على التأثير فيها.

إن نزاع الشرق الأوسط لا يعود إلى آلاف السنين كما يزعمون غالبًا، إنه حصيلة القرن العشرين حصريًّا، وبالحقيقة فإن الحركات الصهيونية والعربية القومية ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، ولكنها لم تكن موجهة ضد بعضها البعض، ووجب علينا أن ننتظر زوال الاستعمار البريطاني الذي جاء بعد أجيال من التسلط العثماني، حتى إن اليهود والعرب الذين كانوا حتى هذا التاريخ في تعايش سلمي، يأخذون في عراك مميت حول مستقبل سياسي لهذه الأرض.

لقد جعل العصر الحــاضر من هذا النزاع مصدرًا لجميع الشرور، وأن ضحايا اليهود التي أقدم عليها الحكم النازي، أضفت طابعًا معنويًّا لتشكيل دولة يهودية، ولم تنشأ هذه الدولة وتعترف بها الجمعية العالمية عام **١٩٤٧** إلا بعد أن دافعت عن استقلالها ضد جيرانها العرب، الذين لم يبالوا بعدد الضحايا التي قدموها في سبيل قهر البغي الأوروبي، ومن جهة آخرى فإن غلبة إسرائيل في حروب الأعوام **٤٨–٤٩** أذكى نار القومية العربية بقدر ما كانت النظم التقليدية التي أفقدتها الهزيمة الثقة، تخضع للأيديولوجية الراديكالية حول توحيد العرب والاشتراكية، ثم أصبحت هذه المنطقة أرضًا خصبة لحرب باردة، الأمر الذي هيج النزاع المحلي حتى أوشك أن تجري فيه مجابهة عظمى بين القوات الأجنبية.

إن إسرائيل التي يحيط بها أعداء ألداء كانت قد دمجت سياستها الخارجية بسياستها الدفاعية، وقد اتخذت هدفًا أساسيًّا ونهائيًّا كأهداف معظم الشعوب الأخرى، ونقطة انطلاق لسياستها الخارجية: اعتراف جيرانها بها وحقها في الوجود، وعاشت بصورة طبيعية في الأراضي المحتلة عام **١٩٦٧**، واطمأنت على أمنها الذي كانت تسعى إليه دون جدوى منذ نشأتها، وكانت تقاتل في آن واحد في سبيل أراضيها والاعتراف بها، وكانت ترفض قبول أي رأي يعارض هذه الأهداف.

في الخامس من حزيران **١٩٦٧** تمكنت إسرائيل من إحداث انفجار حقيقي ومدوٍّ خارج حدودها، متوجة بذاك سلسلة أحداث كانت خطابات العرب قد سبقت نواياهم.

قامت إسرائيل بهجوم مفاجئ دمرت فيه وبضربة واحدة القوة الجوية المصرية، وانتهت الحرب في ستة أيام، واحتلت أراضي في مصر وسورية والأردن وفي صحراء سيناء، وكانت تشكل هذه الأراضي الجديدة ثلاث مرات مساحة إسرائيل ذاتها.

نما التطرف العربي وبنوع ملحوظ بعد **١٩٦٧**، وسياسة مصر المحور الحقيقي للبلاد العربية والغالبية العظمى من العالم العربي تأتمر بالسياسة التي يمليها الرئيس ناصر.

إن الوجود المتزايد للمغاوير الفلسطينيين في الأردن كان يهدد الملك حسين، الهاشمي المعتدل والقريب من الغرب، وإن الاضطرابات التي أثارها هؤلاء المغاوير حرم وجود حكومة في لبنان تقريبًا عام **١٩٦٩** بكامله.

وتأصل الاتحاد السوفيتي بصورة أوثق في المنطقة نتيجة إرساليات ضخمة من المواد العسكرية إلى مصر وسوريا.

شيئًا فشيئًا أخذت بعض أجزاء العالم العربي تتفهم أن العناد سيطيل أمد احتلال إسرائيل للأراضي التي احتلتها خلال الحرب، وفي حين كانت سورية ترفض

أي نوع من المفاوضات كانت مصر والأردن تسعيان -على مضض- إلى مجال للتفاهم، وأنهما بكل تأكيد كانتا تطالبان بالعودة إلى حدود ما قبل الخامس من حزيران **١٩٦٧**.

إن العرب الأكثر اعتدالاً كانوا يطالبون على الأقل بانسحاب كامل، ويرفضون كل محادثات مباشرة، وكان العرب الآخرون يرفضون كل اقتراح في سبيل الصلح.

بعد حرب **١٩٦٧** قطعت مصر ومعظم الدول العربية الأخرى علاقاتها مع الولايات المتحدة، في حين تزايد نفوذ الاتحاد السوفيتي بصورة كبيرة.

وكان ناصر يحثنا على الضغط على إسرائيل واعدًا بإعادة العلاقات الدبلوماسية معنا.

كانت الأسباب لـدينا قليـلة لتلبية رغبته طالما أن سياسته كانت ترتكز دائمًا على الاتحاد السوفيتي، وتمد نوايا متطرفي العالم العربي.

كنت أفكر دائمًا أنه كان ضروريًّا تقليص مدى تغلغل السوفيت في الشرق الأوسط، ولأجل هذا فإن موقف الولايات المتحدة في أزمة السويس **١٩٥٦** ظهرت لي سلبية جدًّا، وكان علينا أن نفهم أن حجبنا العنيف لدعمنا المالي في بناء السد العالي في أسوان لا يفيد سوى إثارة الأزمة بدل إنهائها، وحسب رأيي فإن هذه الأزمة عند نشوبها لم نتفهما جيدًا، ومهما كان الاعتقاد في نفع العمليات العسكرية البريطانية والفرنسية فإني لا زلت مقتنعًا أننا انتهينا إلى دفع ثمن غال لسياسة قصيرة المدى.

كما أني لا أصدق أبدًا أننا إذا تخلينا عن أقرب حلفائنا، سنجلب لأنفسنا معرفة جميل دائم من قبل عبد الناصر أو المعجبين به، بل بالعكس تمامًا، فإنه سيجد نفسه طبعًا وقد أصبح أقوى في مجابهة سياسة كانت بالأساس تتعارض مع المصالح الغربية.

إن النظم المعتدلة التي تساندها القوة والنفوذ البريطاني ولا سيما العراق ستصبح

مستضعفة إذا لم نقل محكومًا عليها بالموت، عند علمها بمساندتنا لمبادئ ناصر، مما سيجعل بريطانيا وفرنسا يسرعان إلى التخلي عن كل مسؤولياتهم الدولية، وإن ضرورات المقدرة ستجبرنا حينئذ لملء الفراغ في الشرق الأوسط وفي شرق السويس، وتحمل المسؤولية الأدبية للقرارات الجغرافية السياسية الخطيرة.

في زيارة جولدا مائير لواشنطن ومقابلتها الرئيس نيكسون صافحته وكأنه صديق قديم وحميم للشعب اليهودي، الأمر الذي كان جديدًا علينا نحن الذين كنا نعرف تنافض نيكسون في هذا المجال، لكن هذه التحية أضفت عليه وجهًا، عليه أن يتطابق معه منذ الآن وصاعدًا، ويخلص إلى عمل الكثير لإسرائيل، الذي إن لم يكن عن عطف فهو على الأقل بسبب نظرة حسابية بعيدة المدى لمصلحة قومية.

كانت أجندة مائير ترتكز على عدة أشياء بسيطة، كان على الولايات المتحدة منع ناصر من التهرب من مسؤولياته ويثبت شروط الصلح من قبل ثلاثة، كما كان على الاتحاد السوفيتي أن يعرف أن الولايات المتحدة لن تسمح بتدمير إسرائيل، وكان على العرب أن يعتقدوا أن إسرائيل لم تعد ضعيفة، وضمن هذه الشروط فقط يصبح الصلح ممكنًا.

لم يتمكن نيكسون من إعطائها وعدًا بأن الولايات المتحدة ستمتنع من الآن وصاعدًا عن طرح مخططات جديدة للسلام وارتبك في تصريحاته، معطيًا انطباعًا أنه يهتم بأمور إسرائيل كأمور إدارته -وهذا كان صحيحًا- وأعلن أنه سيقايض الخردوات بأدوات حرب، وكان يقصد بذلك أنه سيسلم إسرائيل الأسلحة التي تطلبها، إذا أبقت لنا بعض فجوات نجري فيها مفاوضات، والتي كان يرى أنها لن تدوم طويلاً.

وأُجبر على التأكيد أنه كان والسيدة مائير على اتفاق تام، وبدقة أكثر، وافقت على الاحتفاظ بحقها في الإعلان عن معركة، إذا أصبح ذلك ضروريًّا، وستختار خصمها بين من هم في مرتبة أدنى من الرئيس.

كنت أعترض على القيمة الأساسية لما نقدمه من نظريات في دبلوماسيتنا، التي تظن أن وجود مأزق طويل الأمد يقوي موقف الاتحاد السوفيتي، لئن كنت أعتقد العكس، فطالما أن المشكلة موجودة يصبح طبيعيًّا أن يعتقد الاتحاد السوفيتي بعدم قدرته على تلبية رغبات العرب، وبمرور الزمن سيستنتج هؤلاء وبالضرورة أن صداقة الاتحاد السوفيتي ليست الوسيلة الأكيدة لإيصالهم إلى أهدافهم آجلاً أو عاجلاً، حافظنا على رباطة جأشنا فإن هذه الحلول ستدفع بالسياسة المتشددة العربية إلى التساؤل.

تلك كانت استراتيجيتي.

كان ناصر يتكل علينا لإنقاذه من الحالة المزعجة التي وصل إليها نتيجة مجازفة عام **١٩٦٧**، غير أنه كان يرفض تحديد دوره كبطل القومية العربية المتشددة، التي كانت تحمله على اتخاذ موقف واضح بمعاداته لأمريكا أمام معظم المشاكل الدولية.

كما كان يرفض التخلي عن فكرة تبين أن الابتزاز السوفيتي هو الطريقة الفضلى لكسب مساندة الولايات المتحدة، وكان يدفعه هذا الاعتقاد إلى إجراء أغلب مفاوضاته بوساطة موسكو بدلاً من إجرائها معنا مباشرة، ومن جانبهم سواء عن توهم أو عن توافق مع دورهم كمدافعين عن القومية المتشددة فإن السوفيت كانوا يرضون بجعل أنفسهم مدافعين عنيدين عن متطلبات العرب المتلاحقة، فلأي سبب إذًا نُقدم على إنقاذ ناصر من ورطة؟ ولأجل هذا وفي عام **١٩٦٩** آلت كافة مشاريع المفاوضات إلى الفشل.

لكــن في وسط هذه الفــــوضى فإن القوة اللازمة لموقف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تكشفت شيئًا فشيئًا، فليس هناك عقد صلح دون عوننا نحن وحدنا -وليس الاتحاد السوفيتي- كنا نستطيع التأثير على إسرائيل التي كانت قادرة على رد ضغط عسكري عربي، كما كان لدينا القدرة على عدم القيام بنشاط دبلوماسي طالما أن العرب ليسوا على استعداد لمعرفة جميلنا من جراء التنازلات التي تقدمها إسرائي

الفصل التاسع

معضلات النجاح والتحالفات الصعبة

في خريف عام **١٩٧٠** كانت المخاوف -بناء أوروبا موحدة وقوية اقتصادية- بسبب توسع الجماعة الأوروبية قد أخذت تثير معارضين، ولا سيما في مصالحنا الاقتصادية.

إن وزارات المالية والتجارة والزراعة وهي التي تتابع نقطة فنقطة الطريقة التي نظمها البنتاغون، قامت بتحقيق سيئ عرضت فيه نتائج توسيع السوق المشتركة بضم بريطانيا العظمى والنرويج إليها، وفي الواقع فإن تلك الوزارات كانت ترى السوق المشتركة وكأنها غول اقتصادي في طريقه إلى السيطرة على التجارة العالمية، والاتفاقات النقدية، باستثناء المنتجات الزراعية والصناعية الأمريكية. وسيبسط مخالبه تدريجيًّا نحو العالم الثالث، وتولد هذا الخوف الأخير بسبب الاتفاقيات التمييزة التي بفضلها يحق للشعوب المشتركة في السوق المشتركة إقامة علاقات تجارية خاصة واستثنائية مع جيرانها من جوار البحر الأبيض المتوسط، ومستعمراتهم القديمة، وفي حال انضمام جميع المستعمرات البريطانية القديمة إلى هذه الشبكة الحالية من الاتفاقات التجارية فقد يصبح الخطر كبيرًا.

وجاء في دراسة أعدت خصيصًا لمجلس الأمن القومي ما يلي:

"سنجد أنفسنا وعلى المدى الطويل وجهًا لوجه أمام أوروبا موسعة مكونة من سوق مشتركة من عشرة أعضاء على الأقل بحصة كاملة، مع بلاد محايدة من E.L.E.A تجمع أوروبي للتبادل الحر، يقيم علاقات تجارية متميزة مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، والقسم الأكبر من إفريقيا، سيؤمن هذا التجمع نصف التجارة العالمية، وسيمتلك هذا التجمع احتياطًا نقديًّا يساوي ضعف ما لدينا تقريبًا، وسيصبح قادرًا في الوقت نفسه على جعلنا وبصورة دائمة في رتبة الأقلية ضمن التنظيمات الاقتصادية الدولية".

لم يخطر ببالي أبدًا أن أوروبا الموحدة تسارع وبصورة تلقائية إلى تخفيف أثقالنا، لقد قمنا حسب وجهة نظري بخيار استراتيجي من جانب واحد في الأعوام **١٩٥٠** و**١٩٦٠** بترغيبنا للاتحاد الاقتصادي الأوروبي، وفتحنا لأوروبا مجالاً واسعًا يمكنها أن تصبح منافستنا، وأهملنا تشكيل جماعة أوروبية في مجال الدفاع على الأقل عند فشل المشروع الأساسي عام **١٩٥٤**.

لقد أخطأنا بتقدير الأبعاد التي كان يمكن لمصالحنا الأطلسية أن تتزامن، ومع ذلك كنت أفضل الوحدة الأوروبية بشكل أو بآخر، من مجموعة مختلفة وشعوب متخاصمة، حتى إن ضعف قدرتها تؤدي بها عاجلاً أو آجلاً إلى عدم الاهتمام بالسياسة الخارجية، وتصبح بالتالي حيادية، وإن لم يكن ذلك في الأمور الرسمية فيكون ذلك على الأقل في أعمالها.

فلم نكن قادرين على المغامرة بتخريب الوحدة الأوروبية دون تهديم نفوذها السياسي؛ لأن جميع هذه الفرق مجتمعة كانت ساندت في أوروبا فكرة حلف أطلسي قوي.

إن الاشتراك في أوروبا الغربية وأكبر قسم من إفريقيا، وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط مثل إسبانيا والمغرب وتونس، دون المجيء على ذكر إسرائيل، كل هذا هو في مصلحة الغرب الجغراسياسية، ومنع إقامة علاقات بين هذه البلدان ذات الأهمية في أوروبا يكون ضربًا آخر من الجنون السياسي.

وقدمت في الثلاثين من شهر حزيران تقريرًا للرئيس، هاجمت فيه وبوضوح أهداف سياستنا الخارجية، وبرفضنا عقوبات على المنسوجات والأحذية تتأثر جدًّا البلدان التي ترى نفسها في وضع داخلي حرج، وبالنسبة لإسبانيا فإنها ستعطل المفاوضات معنا حول إقامة قاعدة فيها، أما إيطاليا حيث كان الحزب الشيوعي يأخذ بالانتشار فقد لا يكفينا الاعتماد على قرار رئاسي، يجب اقتراح بديل.

وفي المجال الدولي اقترحت إجراء مفاوضات نعرض بموجبها للمجموعة الأوروبية ما ينتابنا من قلق، كما اقترحت في المجال الداخلي إقامة طريقة عمل تسمح للمصالح الاقتصادية بتقديم وجهة نظرها للرئيس.

أخذت الولايات المتحدة بإجراء المفاوضات مع المجموعة الأوروبية، وكان يرأس الوفد الأوروبي رالف داهرندروف ألماني غربي، ليبرالي، كان داهرندروف يتوقع انضمام بريطانيا العظمى، لكن الجماعة حسب رأيه لم تكن على رغبة اتحاد سياسي وسيكون الاندماج الاقتصادي هدفًا خاصًّا بحد ذاته.

وتبين من خلال ذلك أن هذا ما كنت قد وصفته في اجتماع وزاري سابق أنه أسوأ النتائج التي حصلنا عليها، وإذا لم تعوض بتقدم في المجال السياسي فإن اندماجًا اقتصاديًّا مؤديًا إلى منافسة قوية، مع رغبة في الأخذ بالثأر من قبل أمريكا، سيولد الريبة في أفكار مناصري الحلف من جهة، ومن جهة أخرى في الحلف الأطلسي.

إن الضعف والجفاء في العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا ظهرت في ملاحظة كتبت بصورة رديئة من قبل الرئيس على تقرير قدمته له لإطلاعه على المفاوضات مع المجموعة.

كان نيكسون بجانب الحلف الأطلسي، لكي لا يتوسط في هذه المعركة المهدمة.

إن مفاوضاتنا التجارية مع العالم الأوروبي دامت مدة طويلة دون حصيلة طيلة ما يقارب العام، حتى اللحظة التي أنهاها نيكسون ولو بصورة وقتية وأبطل هدفها الأساسي بإقدامه على اتخاذ قرار قاس في **١٥** آب **١٩٧١** بفرض رسم إضافي مقداره **١٠%** على كل الواردات وإلغاء قابلية تبديل الدولار إلى ذهب، ومراقبة الأجور.

وعندئذ حان البدء بالاتصالات الأولى، فقد أظهر الحلف الغربي ازدواجية في مجال الدفاع الجماعي، كما أبدى ريبة تامة في علاقاته مع الشرق، ولم يأخذ بأي فكرة

اتحادية سوى في توسيع الجماعة الأوروبية، موجهًا اهتمامه نحو منافسة اقتصادية مع الولايات المتحدة، ومع ذلك فإن الاتصالات بين بلدان الحلف كانت تسمح لهذه البلدان تحديد مصالحها الجماعية بصورة واضحة وجلية.

وبدأ الزعماء الغربيون في معالجة المشاكل الأساسية، لقد بدأوا فعلاً بطرح الأسئلة الحقيقة، حتى لو وجب عليهم الانتظار الطويل لأخذ أجوبة محددة وموحدة.

إن الاتفاق بين الديمقراطيات هو في الأصل صعب الحصول عليه، مما لو كانت المحادثات تجري بين دول متسلطة.

الفصل العاشر

تداعيات حرب ممتدة

في كل المفاوضات التي أجريتها حاولت دائمًا استطلاع المخرج السهل؛ لأتمكن من الوصول إليه بمبادرتين أو ثلاث، أما الذين يفضلون معالجة الأمور على مراحل قصيرة بانتظار النتيجة النهائية، فإني أستطيع أن أقول: إن طريقتهم هذه لا تحقق سوى تهدئة خواطر الإدارة وإراحة الضمائر، لكن هذا يعطي انطباعًا للمبتدئين كأمر لا يمكن انتقاصه، لكنه على العموم فاشل.

إن تقطيع (السجق) إلى شرائح رقيقـــة يشجع العدو على البقاء متربصًا ليرى ما سوف تكون عليه الشريحة القادمة؛ لأنه غير متأكد أبدًا أن خصمه سيذهب إلى أبعد من ذلك، ولأجل هذا فإني في كل مرة كنت أقوم بإجراء مفاوضات كنت أفضل البدء بمبادرات كبيرة في الوقت الذي كانوا يتوقعون فيه القليل، وحيث كانت الضغوط أقل، وكان عليّ أن أعطي انطباعًا أننا نتمسك بموقفنا الجديد، ولقد اجتهدت دائمًا ألا أتزحزح من جرّاء التهديد.

في شهر تشرين الثاني لعام **١٩٦٩** بدا موقفنا في فيتنام قويًّا على خلاف ما كان عليه منذ بداية حكم نيكسون، ولأسباب شخصية استقال هنري كابوت لودج من منصبه كسفير في محادثات باريس، ورفض نيكسون تعيين بديل له؛ ليظهر عدم رضاه من بطء المفاوضات.

كانت هانوي (عاصمة فيتنام الشمالية) هي التي أعاقت طيلة عام محادثات باريس، وأخذت حاليًا تطالب بتسمية مفاوض آخر ذي شخصية، واقترحت على نيكسون الاستفادة من هذا الظرف لمحاولة العودة إلى المفاوضات السرية.

وإذا رفضوا المحادثات فإن هذا يرتد ضدهم عندما نعلن ذلك، وإذا كانوا على استعداد لإجراء اتفاق -وهذا ما كنت أشكك فيه، فإن المفاوضات السرية وحدها كفيلة بتعريفنا به.

ولجملة أسباب معقدة فإن نيكسون لم يكن ليثق أبدًا بمثل هذه المفاوضات، ولم يكن يخطر بباله أن هانوي تقدم على إجراء اتفاق يرضينا إذا لم نكبدها سلفًا هزائم عسكرية حقيقية، واتضح بعد ذلك أن وجهة نظره كانت صحيحة.

لم تعط هانوي مؤشرًا لقبول المفاوضات السرية طوال عدة أسابيع، لكن أرسلوا إلينا فجأة مطالبين بالإجابة خلال **١٢** ساعة، في حين أننا كنا ننتظر منذ أكثر من شهر، ولقد تأسفت كثيرًا بقبول الموعد المحدد من قبل هانوي؛ إذ كنت ميالاً لتأجيل الموعد؛ لأننا بقبولنا أعطينا انطباعًا لهانوي لتسجيل ذلك بين النقاط البسيكولوجية التي تتمسك بها كثيرًا، وفي الحقيقة إن الخسارة لا تعوض، وقد سرنا بخطى متعثرة.

فشلت الجولة الأولى من المفاوضات مع الدوق تو؛ لأن من دأب الدبلوماسية أن تعكس دائمًا بعض توزان القوى، وأن الدوق تو لا ينخدع بسهولة، إنه على اطلاع تام بالرأي العام في أمريكا، ولا سيما مواقف التنظيمات الحاكمة التي جاء على تحديد أوضاعها سابقًا، أن المشاكل التي تطرحها الفيتنمة حقيقية.

فإن نقص التنظيم ضمن الإدارة الأمريكية يكشف عن الاختلافات الأيديولوجية التي تمزق الأداة التنفيذية، فلم يكن ثمة سبب لدى تو في إعادة التفكير من جديد في طلباته المتشددة، والتي تقوم على انسحابنا غير المشروط، وقلب حكومة سايغون -فيتنام الجنوبية- وإبدالها، ولزم له عامان ونصف لتغيير رأيه، في حين أن الموقف العسكري لم يترك له خيارًا آخر.

في العشرين من شهر نيسان أعلن نيكسون بدء الانسحاب من فيتنام؛ إذ قدمنا توقيتًا زمنيًّا للانسحاب، وفي المجال العسكري كنا نساند القوات الرئيسية الممكن إبقاؤها خلال الأشهر الثلاثة القادمة.

قمنا خلال عام بإنقاص كلي في الانسحابات يعادل **٢٦٥٥٠٠** رجل من أصل ما كان مقررًا عند استلامنا الحكم وهو **٥٤٩٥٠٠** رجل.

الفصل الثاني عشر

الشرق الأوسط عام ١٩٧٠

في بداية عام **١٩٧٠** أخذت آلهة الحرب باستعراض ترساناتها، وكانت تقع اشتباكات كل يوم على طول قناة السويس، وقامت إسرائيل بغارات جوية داخل مصر مع هجوم بالقنابل حول القاهرة، وفي دلتا نهر النيل؛ لإظهار عدم قدرة جمال عبد الناصر، ولوضع حد بالقوة لحرب سميت بحرب الاستنزاف، وقام ناصر وبصورة فجائية بزيارة سرية إلى موسكو، وعلى أثر ذلك تركزت جميع قضايا الشرق الأوسط أكثر فأكثر في علاقات القوتين الأعظمين.

وفــي الوقت ذاته فإن الولايات المتحـدة كانت مثقلة باختلافات داخل الحكومة حول طبيعة هذه المشكلة، ولقد بينت وزارة الشؤون الخارجية بما يلي: أن سبب متاعبنا نابع من نزاع بين إسرائيل والعرب حول قضية أرض، وإذا حُلّ هذا الإشكال نتيجة لرأي خبراء، فسوف ينقص نفوذ العرب المتشددين ويضعف معه الدور الذي يقوم به الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، ووجهت هذه الفكرة عملنا الدبلوماسي طوال عام **١٩٦٩**، وحملتنا على تقديم اقتراحات لتسوية إجمالية أكثر تحديدًا.

كانت لديّ شكوك حقيقية حول هذه الفرضيات وما تفرضه من مواقف، وكنت أقدر الوضع كالتالي:

للراديكالية العــربية خمسة أسبـــاب رئيسية: احتلال إسرائيـــل لأراضيها، الوجود الإسرائيلي ذاته، الاستياء العام من الوضع الاجتماعي والاقتصادي، معارضة المصالح الغربية، ومعارضة المعتدلين من العرب.

يمكن تسوية أول هذه الأسباب فقط، وستبقى بقية الأسباب دون تغيير، وبالنسبة للمتشددين فإن الرأسمالية الغربية ستكون دومًا مفروضة، ولن تكون مقبولة إلا من

النظم العربية المعتدلة، وستبقى أسباب الاستياء العام الاجتماعي والاقتصادي، أن إسرائيل باقية هناك، وسيبقى العرب المتشددون يسعون لإزالتها عن الخريطة، هذا ما كان يفهمه الإسرائيليون تمامًا، والمشكلة طبعًا هي وجود إسرائيل وليس وضع حدودها، الأمر الذي كانوا يمانعون فيه جدًّا.

ولم يراود تفكيري أبدًا أن تسوية النزاع الإسرائيلي العربي ستؤدي وبصورة أكيدة إلى تقليص النفوذ السوفيتي، إن أمورًا كثيرة تتوقف على طريقة التسوية وما تتضمنه من شروط، وإذا ظهر أن التسوية ستكون حصيلة ابتزاز أو ضغوط سوفيتية، فإن النظم المتشددة ذات الاتجاه المعادي للغرب والمؤيد للسوفيت يصبح موقفها معززًا، ويدخل في اعتبارها وجوب إعادة الأراضي إلى السابحين في فلك السوفيت.

وكان علينا أن نعمل، ليس فقط بشأن الوصول إلى حل مهما يكن نوعه، بل لنظهر -أيضًا- أن الطريقة الفضلى للنجاح باتجاه السلام هي الوقوف إلى جانب أصدقائنا، ويمكننا القول: إن المعتدلين يمتلكون مفتاح الحل في الشرق الأوسط.

وكنت على اعتقاد أن قوة أوضاعنا ستبرهن للعرب أن الزمن لا يعمل لصالح السوفييت، فإذا لم يستفد العرب سوى إعادة الأراضي المحتلة فإن هذا سيساعد في أن يتجه هؤلاء نحونا.

لم أكن أبدًا في وضع يمكنني من تطبيق هذه الاستراتيجية، كان نيكسون قد أوكل أمور الشرق الأوسط إلى روجرز، ويرفض التدخل فيها حتى في مواقع الشك، ولم يكن في هذه المرحلة على الأقل مقتنعًا من صحة تحليلي، وكان مستمرًا في اعتقاده أن الاتحاد السوفيتي كان هو المنتصر السياسي في حرب عام **١٩٦٧**، كما أنه لا يزال -أيضًا- يتمسك ببعض مبادئ غامضة من تبادل مناطق النفوذ مع الاتحاد السوفيتي بين الشرق الأوسط وفيتنام، وكان يبدي اهتمامًا قليلاً تجاه أهلية الانتخاب اليهودي كبقية جميع أسلافه، ويرغب في إظهار أن ضغوط تلك الانتخابات ليس لها

أي تأثير عليه، ويتساءل عما إذا كانت يهوديتي لا تلقي شكًّا على محاكماتي.

وبصورة طبيعية عملت جاهدًا في إعداد خياراته الاستراتيجية، وأسدي للوزارات المختلفة التوجيهات التعبوية اللازمة، وكان مستحيلاً عليّ التدخل في سياسة الشرق الأوسط حتى نهاية **١٩٧١**.

في الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني **١٩٧٠** استلمنا رسالة من السوفييت فحواها أن اقتراحاتنا في سبيل السلام عام **١٩٦٩** قد استخدمت كغطاء للغارات الإسرائيلية على الأراضي العربية، وأنه في حالة تتابع الهجمات الإسرائيلية يجبر الاتحاد السوفيتي أن يكون حريصًا على أن تستخدم الدول العربية الوسائل الكفيلة برد عدوها المتغطرس بالطريقة التي يستحقها.

أرسلنا ردًّا يتضمن رفضًا قطعيًّا لكل مزاعم السوفييت، وتخلل الجواب تحذيرًا في حال أن الروس ينفذون تهديدهم ويزيدون إرساليات السلاح، فمن المحتمل أن الدول ذات السيادة تجد نفسها مضطرة للاشتراك في النزاع، وأن الولايات المتحدة تراقب عن كثب توازن القوى في الشرق الأوسط، ولن تتردد عند اقتضاء الحال عن تزويد الدول الصديقة بالسلاح، وكان ختام الرسالة رفض الموقف السوفيتي الذي يطالب بانسحاب إسرائيل حتى يمكن تسوية جميع الأمور.

كان نيكسون خلال المفاوضات مع السوفييت يقع تحت تأثير اعتبارات داخلية ودولية، فأصبح موقفه مزدوجًا، فكتب على أحد هوامش مذكراتي: إن الوقوف على الحياد سياسة يحسن اتباعها، ولكن وقبل كل شيء إنها مصالحنا، التي تعطي مجالاً للسوفيت لإرباكنا، ولا يجوز أن النزاع الإسرائيلي – العربي يبعد عن أفكارنا هذه المصالح.

وكان في الوقت ذاته ميالاً إلى جانب رأي وزارة الشؤون الخارجية التي كانت ترى في السياسة الإسرائيلية السبب الأساسي لكل الصعوبات الحالية.

كان الرئيس على اقتناع أن معظم رؤساء المجتمع اليهودي كانوا ضده على مدى حياته السياسية، وكان يردد مازحًا: إن القلة من اليهود الذين صوتوا إلى جانبه يجب أن يكونوا على جانب من الجنون إذا ثبتوا على ولائهم له، حتى في حال مهاجمته إسرائيل، وكانت رغبته ملحة أن يبرهن لحاشيته ووزرائه أن المجلس اليهودي ليس له عليه أي مأخذ.

ولسوء الحظ لم تتح الفرص لنيكسون الظهور بمظهره الحقيقي، والذي يثبت حقيقة نظريته؛ لأن التحليل الجغرافي السياسي الذي قام به في جميع المشاكل الواقعية، أدى به إلى اتخاذ مواقف لا تختلف كثيرًا عن غيرها، والتي يتخذها هؤلاء الواقعون تحت تأثيرات عنصرية، وكان يهدد على انفراد بانتقامات عنيفة لكل أطراف الانتخابات، والذين -حسب اعتقاده- يخالفونه في ما يرمي إليه، وكان يستعين بحركات خصوصية ليبرهن أنه غير خاضع للمؤثرات التقليدية التي عانى منها غيره من الرؤساء، ولكنه في نهاية المطاف بعد أن يصطدم بواقع النفوذ في الشرق الأوسط، كأن ينتهي بعد ارتباك شديد وتفكير قلق إلى تطبيق السياسة ذاتها، متخذًا ذريعة مصلحة الأمة، تقليص النفوذ السوفيتي وإضعاف موقف المتشددين العرب، وتشجيع العرب المعتدلين، وتأمين سلامة إسرائيل.

نيكسون وأنا كنا نقطع الطريق منفصلين، ولكن عندما يحين وقت اتخاذ قرارات خاصة بالشرق الأوسط كنا نلتقي، ونتفق بالرأي، ونساند بعضنا في جميع تصرفاتنا.

خلال شهر شباط أخذت حكومتنا بدراسة لائحة العتاد العسكري -طائرات حربية- التي تطلبها إسرائيل عام **١٩٧٠**، على أن يدفع ثمن الأسلحة بأوجه مختلفة من عقود تراضٍ من قبل أمريكا، وكان رأي جميع الوزارات متفقًا على أن إسرائيل ستصبح هكذا في وضع يمكنها من المحافظة على تفوقها العسكري خلال فترة تمتد من ثلاث إلى خمس سنوات.

في نهاية شهر شباط قام الرئيس الفرنسي بومبيدو بزيارة رسمية إلى الولايات المتحدة، وهي الزيارة التي كان نيكسون يعلق عليها أهمية كبرى من دون الاهتمام بالمعطيات الداخلية التي ستخلفها هذه الزيارة.

كان الرئيس بومبيدو قد عقد اتفاقًا على تسليم أسلحة موزعة على أربعة أعوام مع العقيد معمر القذافي، وبموجب هذا العقد كانت فرنسا تبيع إلى ليبيا أكثر من مائة طائرة ميراج، ومنطقيًّا فإن ليبيا لم تكن بحاجة إلى هذه الكمية الكبيرة من الطائرات، وفي الواقع لم يكن في هذه الفترة في ليبيا سوى عدد ضئيل من الطيارين القادرين على قيادة هذه الطائرات المطورة جدًّا. وبكل تأكيد فإن هذه الطائرات كانت مخصصة للاستخدام من قبل دول عربية أخرى، وطبعًا من قبل مصر.

وكما يجب أن يتوقع فإن مؤيدي إسرائيل في الكونغرس احتجوا بشدة، وكانت هناك مظاهرات في كل مدينة يتوجه إليها الرئيس الفرنسي وعقيلته، وحصل حادث مؤسف في شيكاغو حيث أقدم متظاهرون وبصورة خاصة على إهانة عقيلة بومبيدو، فاختصر الرئيس زيارته لشيكاغو وعاد إلى نيويورك.

بعد إطلاع نيكسون على الخبر كان رد الفعل لديه بطريقتين مختلفتين: الأولى نبيلة والثانية دنيئة. إن رد الفعل النبيل كان أن أقلته طائرة وبصورة مفاجئة لحضور عشاء يقام في نيويورك على شرف الرئيس بومبيدو، وألقى نيكسون خطابًا بليغًا، دبجه بعواطف حارة لرئيس الدولة الفرنسية.

أما بالنسبة لـرد فعله الانتقامي فتفسر بصـورة أمر موجه مباشرة إلى الشؤون الخارجية، الالتزام بتأجيل تسليم أسلحة لإسرائيل إلى أجل غير مسمى.

وفيما لو أخذ رأيي حول الموضوع، كنت أشرت أن هذا تصرف في غير محله، الانتقام من بلد أجنبي بسبب تصرفات أقلية أمريكية، ونحاول في الوقت نفسه إعطاء مجال للاتحاد السوفيتي أن يجد غبطة لنفسه.

تطورت المفاوضات مع السوفييت حول وقف إطلاق النار وقدموا بعض التنازلات، واقترحت على نيكسون تعويض إسرائيل عن خسارتها في طائراتها فوافق، التقيت رابين لإطلاعه على قرار الرئيس وطلبت في الوقت ذاته أن تضع إسرائيل حدًّا لغاراتها العميقة، وتقبل بوقف إطلاق النار بصورة نهائية، سلمني رابين رسالتين من السيدة غولدا مائير موجهتين إلى نيكسون، كانت تبين إحداهما الضجة الكبرى التي أحدثناها بتأجيلنا شحنات الأسلحة لإسرائيل بما فيها الطائرات التي كانت قد طلبتها أو تلك التي قد أتينا على إلغاء إرسالها.

وكانت السيدة مائير تبين أن قرارات كهذه لا عمل لها سوى مضاعفة الخطر العسكري ضد إسرائيل، وتشجع العدوانين السوفيتي والعربي، كانت تخشى بادرة التخلي من إذكاء روح البغضاء ودفع البعض إلى ارتكاب مخاطر دون روية.

ظهر رابين على وجه العموم قليل التحمس تجاه وقف إطلاق النار الذي كما قال سينقذ ناصر ولن يسوّي شيئًا، لكنه بعد خمسة أيام أحضر جواب مجلس الوزراء الإسرائيلي: إن إسرائيل على استعداد لقبول وقف إطلاق النار، شريطة إيقاف كل نشاط عسكري حالاً، وأن يضاعف عدد الطائرات التي سترسل إليها، وعلى نيكسون أن يعطي ضمانات علنية حول المحافظة على قوة سلاح الجو الإسرائيلي وتوازن القوى في الشرق الأوسط.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أجد نفسي معرضًا مباشرة للتفاوض بطريقة ما مع الإسرائيليين، ولقد استخدمت مزيجًا من الثبات في موقفي والتكتيك المتعب، لكن الإسرائيليين لا يتركون لمحادثهم سوى بقية أثر من التفكير والترابط العقلي التي يحتاج إليهما لدى توقيعه الوثيقة النهائية.

ومهما يكن الأمر فإننا قبل تسوية المشكلة مع إسرائيل، توصلنا إلى كشف النوايا السوفيتية تجاه مصر، فقد أبلغني رابين بوصول شحنة أسلحة سوفيتية تتضمن عتادًا مضادًا للطائرات برفقة **١٥٠٠** جندي سوفيتي.

كان الوضع يدل على السير في منعطف مثير من قبل السياسة السوفيتية، فلم يسبق أبدًا أن عرّض الروس قواتهم الخاصة إلى خطر كهذا في سبيل نفع بلد غير شيوعي، وكان ما يثيرني حقًّا أن بمقدار ما يزيد الروس في تعزيزاتهم سيجبرون على حمايتها، ثم إحراز نتائج تبرز موقفهم ووجودهم.

ضاعف الروس صواريخهم، وتزايد عدد جنودهم حتى اقترب من عشرة آلاف، وبعد فترة أبلغني رابين أن طيارين سوفيت قاموا بمهمات دفاعية فوق الأراضي المصرية، وأصبحت المعارك الجوية بين طيارين روس وطيارين إسرائيليين شبه حقيقية.

تحركت أخيرًا حكومة الولايات المتحدة، وأعلن البيت الأبيض عن إعادة نظر سريعة وشاملة للوضع، وكلفني نيكسون بإبلاغ رابين عن تقديم طائرات لإسرائيل، لكنه كان لا يزال قلقًا من رد فعل عربي فطلب مني عدم إعلان القرار مما أدى إلى إضعافه.

في لقاء متلفز أبدى نيكسون موافقته على القسم الأكبر من تحليلي، وأبدى مخاوفه من أن يرى القوتين الأعظمين تتورطان في مجابهة بشأن موضوع الشرق الأوسط، ثم أعلن أن الولايات المتحدة لن تسمح أبدًا بقلب توازن القوى الموجود حاليًا، وإذا فقد التوازن ذات يوم لتصبح إسرائيل أضعف من جيرانها فهذا يعني الحرب، وبناء على ما تقدم فإن مصلحة الولايات المتحدة تقتضي بمساندة هذا التوازن، وإذا سلمنا أن الاتحاد السوفيتي يثبّت خطاه بمساندة الجمهورية العربية المتحدة، يجب على الولايات المتحدة تقويم أعمال الاتحاد السوفيتي، وإذا فقد التوازن السياسي سنعمل ما يجب للمحافظة على قوة إسرائيل تجاه جيرانها.

وافق السوفيت ونـــاصر فجأة على عرض وقف إطلاق النـــار، كما عـــرضوا مناقشة سحب قواتهم من الشرق الأوسط مقابل سحب قواتنا من إيران، كان لدينا شك أن عرضهم ليس سوى تغطية لتحريك بطاريات الصواريخ السوفيتية في اتجاه قناة السويس.

إن انتباه الحكومة كان منهمكًا بكامله برد الفعل الإسرائيلي تجاه انفتاحنا، وقد كان ذلك ظاهرًا بوضوح، ضامًّا إليه موقفًا أنهكته شدة التشدق التي لا تنطوي على شيء جديد، إن ألفي عام من الآلام حفر في نفس اليهودي تأثرًا عميقًا لمأساة وشيكة الوقوع، والموقف الإسرائيلي كشعب قليل العدد لا يعد أكثر من مليونين ونصف من السكان، يحيط به ما يقرب من مائة مليون من الأعداء ذوي قدرة، في قلب منطقة رأت إمبراطوريات ودولاً وجدت ثم اندثرت، فإن هذا يذكر كل إسرائيلي دون انقطاع أن الوجود التاريخي لأمة أو شعب ما هو سوى ظاهرة زائلة.

إن حظ إسرائيل في البقاء محدود جدًّا، يدعو قادتها إلى التشكك بالتحركات الكبيرة، والمبادرات الدبلوماسية المحطمة. إن البقاء بالنسبة لهم يرتكز على حسابات دقيقة، يعتبرها المراقبون الأجانب عنادًا ومماحكة، الأمر الذي ينطبق عليهم هم أحيانًا، وعند قبول القادة الإسرائيليين اقتراح سلام يأخذون بمعارضته بعناد، وغايتهم في ذلك أن يظهروا عدم سذاجتهم في المفاوضات، وسرعتهم في المناورة، وتثبيط طلبات تنازلات إضافية من قبل إسرائيل، ويترافق قبولهم بطلبات تأكيد جديدة وعديدة، وتفسيرات سرية تخصص لتحديد حرية عمل حليف متلون، يبعد ثمانية آلاف كيلو متر، لكنه يزودهم بالأسلحة ويسند اقتصادهم، ويحمي سياستهم الخارجية، ويبدو عليه الألم من فكرة قسرية سقيمة بطلب اقتراحات سلام جديدة في كل مناسبة.

يتعزز هذا الاتجاه بتنظيم سياسي، تكون معه الحكومات ائتلافية مضطربة مشكلة من عدة أحزاب وفئات مستقلة، وإن تنظيمًا مثل هذا لا يساعد على اتخاذ قرارات سريعة والسير ضمن سياسية خارجية مرنة، وكل رئيس يقدم تنازلاً ما يهاجمه زملاؤه ويرفعون أمره إلى الكنيست، هذا إذا لم يعتبر خائنًا، أو على الأقل مغفلاً من قبل هؤلاء الحمقى الأمريكيين.

إن إسرائيل يوافقها في أغلب الأحيان تحميل حليفها مسؤولية الخيارات الصعبة، قبل أن تتخذ هي القرار حول ذلك، وتتمكن إسرائيل من استخدام الضغط الأمريكي

ذريعة لتصرفاتها، هذا على الرغم من أن كثيرًا من الزعماء الإسرائيليين يؤيدون ضرورته على أية حال.

فليس من الطبيعي إذًا أن تتجاوب إسرائيل وبحماس مع اقتراح وقف إطلاق النار ومبدأ المفاوضات، ولذا لزمنا وقت غير قصير من تبادل المذكرات الدبلوماسية والتدخلات الرئاسية، حتى حصلنا وباحتقار على جواب مقبول.

وجّه نيكسون إلى مائير مذكرة يطالب فيها الإسرائيليين اغتنام فرصة قبول العرب مبادرة الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه كان يطمئنها أنه لن يجبر إسرائيل على قبول الرأي الذي يفسّر به العرب القرار (**٢٤٢**) الصادر عن مجلس الأمن.

ورد الفعل لدى إسرائيل كان المطالبة بعون عسكري متزايد، ولا سيما بأسلحة تسمح لها بإزالة الصواريخ أرض - جو السوفيتية، فوعدنا بدراسة هذه المطالب بكل دقة، فطالبتنا إسرائيل مجددًا أن نبين حقيقة موقفنا حول قضية انسحاب القوات واللاجئين، ولما لم يكن للحكومة موقف محدد، والذين يملكون حلولاً لا يستطيعون الإفصاح عنها بوضوح، خوفًا من عدم قبولها من الجانب الإسرائيلي، لذلك فإن أجوبتنا لم تكن صريحة أبدًا.

وضع اتفاق وقف إطلاق النار والذي أوجدته ظروف غامضة حيز التنفيذ، وكان يتضمن اتفاقًا لوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل.

اتهمت إسرائيل مصر بخرق وقف إطلاق النار، وفي إسرائيل سحب مناحم بيغن حزبه من معارضة الائتلاف للأزمة، وهاجم غولدا مائير بعنف.

سلمني رابين مــذكرة من جولدا مائير تؤكد وتؤيد بالبرهان أن صواريخ سوفيتية أحضرها المصريون إلى منطقة وقف إطلاق النار، فأقر نيكسون تسليم إسرائيل وبسرعة صواريخ مخصصة لاستخدامها ضد الصواريخ السوفيتية.

بعض البراهين التي كانت في حوزتنا قد أبلغت إلى مصر، وعلى الرغم من أن هذه البراهين لم تكن كافية، بيّنا للمصريين أننا لن نوجه لهم تهمًا علنية، وذكّرناهم بالأمور التي تشكل حسب رأينا خرقًا لوقف إطلاق النار، وحذرناهم أنه في حال استمرار أنشطتهم، فإن هذه تعرّض محادثات السلام للخطر، وأبلغ الروس كذلك بهذه المساعي في القاهرة، وأخيرًا تحاملنا على أنفسنا كثيرًا لنؤكد على الإسرائيليين التصرف باعتدال وعدم التسبب بصعوبات أخرى بتعميمهم ما يجري من أحداث.

رفضت مصر بكل صراحة اتهاماتنا لها بخرق وقف إطلاق النار، وأكدت في الوقت ذاته أن الأعمال التي قامت بها كانت مطابقة لتأويلها اتفاق وقف إطلاق النار، وأنها لن تستقدم صواريخ إضافية إلى منطقة قناة السويس، لكنها تحتفظ بحق العودة إلى تأمينها، ولن تنشئ مواقع جديدة، وتحتفظ بحق تعهد وترميم ما كان منها موجودًا. وأخيرًا إن إسرائيل هي التي تخرق وقف إطلاق النار، وإن شحنات الأسلحة لإسرائيل تغاير الضمانات التي قدمها روجرز، وتخالف اتفاق وقف إطلاق النار.

في هذا الظرف الحرج لفتّ انتباه الرئيس أننا نسير باتجاه فقدان كل رصيدنا لدى إسرائيل، لا سيما في الوصول إلى وقف إطلاق النار، وأن السوفييت وناصر سيظنون على الأرجح أننا مستعدون لقبول مخالفات وقف إطلاق النار، على الرغم من أننا نبهناهم إلى ذلك مباشرة، وعلى الرغم من الوعود التي قطعناها لإسرائيل، وسيكون لهذا نتائج خطيرة على انفتاحنا على مجريات الشرق الأوسط، وعلى آفاقنا المستقبلية ذات الأمد الطويل في كل المنطقة عمومًا، وعلى العلاقات الأمريكية - السوفيتية. فإن اتخاذ موقف أكثر ثباتًا حيوي جدًّا لنا، بالنسبة لمخالفات وقف إطلاق النار، ولوضع الروس تجاه مسؤولياتهم.

إن الشرق الأوسط كان المجال الوحيد الذي رأى روجرز يتحكم بزمام مسؤوليته ومفوض بتصريف أموره، وكان يبدو أن وقف إطلاق النار يشكل نصرًا كبيرًا، وأول إنجاز غير منكر لحكومة نيكسون في السياسة الخارجية، ومن خلال هذه الظروف

يتبين أن روجرز واجه على مضض توقع الفشل، وكان يتأثر من كل تلميح بتدخل البيت الأبيض، ثم اتخذ اتجاهًا لاعتبار جهودي محاولة لحرمانه من شعار فخاره.

اتهمني روجرز بإثارة الأزمات بتشددي في الإبلاغ عن خرق وقف إطلاق النار، ولسوء الحظ لا يمكن اجتناب الأزمات بإنكار ظروف مسبباتها، وتحميل مسؤولية حدوثها على من ينقل أخبارها السيئة.

الفصل الثالث عشر

أزمة في الأردن

المملكة الأردنية الهاشمية التي كانت تدعى شرق الأردن قبل عام **١٩٤٩**، وشكلت بعد الحرب العالمية الأولى عندما ندبت عصبة الأمم بريطانيا العظمى لتحكم فلسطين، التي كانت تضم حينذاك جميع الأراضي الكائنة بين العراق والبحر الأبيض المتوسط، وفي عام **١٢١٩** استبعدت بريطانيا العظمى عن انتدابها، تلك البقعة التي لم تكن سوى بادية لتنشئ فيها مملكة لحلفائها الهاشميين، الذين خابت آمالهم في ممالك أخرى.

وكانت منذ نشأتها عنصر اعتدال وتقدم وثبات في الشرق الأوسط، وحكمت شعبها بتعقل، حتى اليوم الذي انخرطت فيه في مخاطرة الرئيس ناصر، تحت لواء تضامن عربي مستمر، وكانت نتيجة ذلك احتلال إسرائيل للضفة الغربية، الخصبة جدًّا والآهلة بالسكان.

إن الفدائيين وهم لاجئون فلسطينيون نتيجة عدة حروب بين العرب وإسرائيل استقروا في الأردن لا سيما بعد حرب **١٩٦٧**، وأخذوا يقومون بغارات ضد إسرائيل والأراضي التي احتلتها، وأكثر من **١٧** ألف جندي عراقي يمثلون أقصى التشدد في الأنظمة العربية ظلوا في معسكراتهم التي يعود تاريخها إلى حرب عام **١٩٦٧** في الشرق من الأردن.

لم يكن الملك حسين قادرًا على إبعاد لا هذا ولا ذاك من الفريقين، دون اتهامه بالحنث بالتضامن العربي، إن وجود هذه القوات المسلحة المتشددة كان يبرهن على تعاظم الراديكالية العربية في زمن عبد الناصر، وتزيد في ضعف سلطة الحسين لم يتردد العراقيون والفدائيون أبدًا عن استخدام قدرتهم التي يملكونها، وقام الفدائيون بغارات على إسرائيل، دون الاهتمام بما ستجلبه مثل هذه الأعمال من مخاطر على

الأردن، ونفذ العراقيون مناورات عسكرية على الأراضي الأردنية.

إن الجيش الأردني خريج الفيلق العربي الأسطوري، الذي نظمه الجنرال البريطاني السير جون غلوب (غلوب باشا) عام **١٩٤٠**، وكان القسم الأكبر من هذا الجيش من البدو الشديدي التعلق بالملك حسين، وقد وجد هذا الجيش نفسه عام **١٩٧٠** مشدودًا إلى جبهتين؛ إذ كان عليه من جهة حماية الملك من الفدائيين، ومن جهة أخرى حماية الأراضي الأردنية ضد الانتقام الإسرائيلي نتيجة هجمات الفدائيين.

كان الملك يواجه خطرًا من قبل الفدائيين الذين امتلئوا غيظًا ضد الملك الذي كان يجتهد في الوصول إلى اتفاق سياسي مع إسرائيل بشأنهم، قاموا بتحديات عديدة ضد جيشه، وحاولوا قتله.

انهار الوضع في عمان وأعلمت نيكسون بناءً على إعلام من القائم بأعمال السفير هناك، بأن فوضى عامة تسود البلد، وكلفت سفارتنا بإجلاء العائلات والموظفين الذين لا ضرورة لوجودهم.

تم عمل اجتماع لفريق العمل الخاص وعالجنا في اجتماعنا احتمالين رئيسيين:

١-إجلاء الأمريكيين بوسائل نقل عسكرية، إذا اقتضت الحال.

٢-أي جواب يجب أن نعطي للملك حسين إذا طالبنا بعون يساعده في الحفاظ على سلطته ضد الفدائيين، أو ضد تدخل خارجي من العراق أو سورية، والدولتان يحكمها رجال أكثر تشددًا وتأييدًا للسوفيت من جمال عبد الناصر.

كانت الآراء متشعبة في اجتماع فريق العمل الخاص، حول ضرورة وإمكانية تدخل عسكري أمريكي، وكان هناك اعتقاد عام إذا نجح التدخل أن يفقد حسين سمعته ويقلل اعتباره تجاه بقية العالم العربي، وربما يصير إلى توقيع صك موته السياسي.

شعرت أن الجميع يميل إلى مساعدة حسين إذا أمكن ذلك، وكما سعيت سابقًا لإحباط مشاريع ناصر التي كان ينميها لتوثيق علاقاته مع السوفييت، ومساندة كل الأنظمة المتشددة سعيت لتعريف العالم بأفضليات صداقة الولايات المتحدة.

وكان حسين ينادي دومًا بالاعتدال، وقاوم تيارات التشدد واجتنب الشعارات المعادية للغرب وفق العادة الجارية، وكان يجد نفسه في عسر بسبب تردده في أن إرخاء العنان للفدائيين يجعل الشرق الأوسط برمته راديكاليًّا، وأن إسرائيل لن تقبل بإقامة قواعد للفدائيين على طول حدودها مع الأردن، مما يؤدي إلى حرب أخرى في الشرق الأوسط. وحسب تقديري فإن الأردن تجربة لإمكانية بقائنا أسياد الأحداث في المنطقة، وافقني نيكسون على وجهة نظري هذه في اجتماع مجلس الأمن القومي.

قام الفدائيون بعدة عمليات اختطاف طائرات وساوموا بركابها مقابل مقابل تحرير جميع الفدائيين السجناء، كنا قلقين إذا استطاع الفدائيون استخدام الأردن قاعدة انطلاق وتقويض سلطة الملك، أحد زعماء المنطقة المعروف باعتداله، وميوله المؤيدة للغرب، فإن الشرق الأوسط سينقلب رأسًا على عقب.

كانت تردنا من عمان تقارير مزعجة وما كان يعتبره الجيش الأردني إهانة أو إثارة من قبل الفدائيين قاده إلى تمرد فعلي، ولما كان أمينًا لملكه رفض كل تسوية جديدة وهدد الجنود الأردنيون باستلام زمام الأمور بأنفسهم في سبيل مصلحة الملك، والتوتر الزائد الذي كان يمارس ضد حسين كانت الغاية منه القيام بعمل حاسم.

أعلن الملك حسين عن تشكيل حكومة عسكرية، وأحاط عمان بجنود موالين للجيش الملكي، وتأكد أنه اتخذ قرار البطش بالفدائيين، وكان لديه اعتقاد أن إسرائيل ستتدخل عندما يظهر لها أن الفدائيين هم الغالبون، وسيحدث هذا حقًّا إذا تدخل الجيش العراقي، وإذا تدخلت إسرائيل فإن كل العالم مجمع على أن الولايات المتحدة ستقف على الحياد، لكنها في الوقت نفسه تصد عمليات السوفيت الانتقامية ضد

إسرائيل، وللتدليل على مساندتنا يجب علينا تقديم عتاد للملك وبصورة عاجلة، ومهما يحدث فإن سرعتنا في التصرف حيال هذا يجب أن تكثف.

إن دورنا الأكثر جدوى حسب رأيي، يقوم على سرعة إرسال قواتنا إلى البحر الأبيض المتوسط، وبشكل قوي؛ لإحباط تدخل الأنظمة العربية المتشددة في الأردن، والقيام بمساندة قوية للملك، ومعارضة أي إجراء انتقامي سوفيتي (بما فيها إذا اقتضت الحال تدخل عسكري). إن تكثيف قواتنا العسكرية في البحر الأبيض المتوسط، وغموض تصريحاتنا كان عليهما أن يثبتا موقف حسين، ويثبطا همة خصومه، ويجعلا السوفييت يترددون.

أرسلت توجيهات للوزارات طالبتها بإعداد مخططات عسكرية ودبلوماسية مفصلة، للتمكن من مواجهة الأمور المتوقع حدوثها وهي تزويد القوات الأردنية بالعتاد، وتدخل الولايات المتحدة لإجلاء مواطنيها، والهجوم الجوي أو البري الأمريكي لمساندة حسين في حال تدخل خارجي (الحل الذي يفضله الرئيس)، والموافقة الأمريكية على هجوم إسرائيلي جوي أو أرضي (الحل الذي يفضله فريق العمل الخاص).

في السابع عشر من شهر أيلول استعرت نار معركة كبرى حين أصدر حسين أمرًا إلى جيشه بدخول عمان، وكان من الأمور الرئيسية مع اندلاع تلك الحرب الأهلية سرعة انتشار القوات الأمريكية للتمكن من إحباط كل محاولة، فتحركت حاملة الطائرات ساراتوغا من مالطا متوجهة قرب الساحل اللبناني لتكون بجوار حاملة الطائرات اندباندانس.

بعد ظهر اليوم أبلغت الرئيس نيكسون أن القوات العراقية استمرت في جاهزيتها بينما كان الجيش الأردني يهزم قوات الفدائيين، إن أحداث اليوم بما فيها تصريحات الرئيس (عن تدخل القوات الأمريكية إذا اقتضى الأمر) قوّت من عزيمة صديقنا الشجاع ملك الأردن، ويوم الجمعة المصادف للثامن عشر من شهر أيلول رأى العالم الإسلامي أن

الجيش الأردني يستعيد تدريجيًّا السيطرة على عمان، ولم يتحرك العراقيون أو ناصر.

في العشرين من أيلول دخلت الدبابات السورية إلى الأردن وتوترت الأمور، وناقشنا فكرة تدخلنا أو السماح لإسرائيل بالتدخل، تم الاتفاق على أن نغض البصر عن طلعات جوية إسرائيلية، وأعلمني رابين نقلاً عن جولدا مائير أن إسرائيل ستكثف منذ الفجر طلعات الاستطلاع.

تواصلت مع السوفييت وطلبت منهم أن يستعملوا نفوذهم لدى السوريين لينسحبوا من الأردن.

في الثاني والعشرين من شهر أيلول تلقينا أخبارًا طيبة، إن الأردنيين وقد شجعتهم ردود أفعالنا ولأن سلاح الجو السوري (بقيادة الفريق حافظ الأسد) امتنع عن التدخل، فأخذ الأردنيون بمهاجمة المصفحات السورية بطائراتهم وكبدوهم خسائر **١٢٠** دبابة.

مع تـوالي الضغوط وعدم التهـاون من جانبنا فـي إظهار قدرتنا على التدخل، أو السماح لإسرائيل بالهجوم، انسحبت الدبابات السورية من الأردن.

إن القوى المعتدلة في الشرق الأوسط قد أفلتت من الخطر، وانتصر الملك حسين بشجاعته وصموده، وبفضل الصداقة التي تربطه بالولايات المتحدة، أما الروس فقد حافظوا على خط الرجعة خشية حدوث خيبة أمل لدى العرب تجاه موسكو.



هدية العدد ٣٢ من مجلة كَلِمَةُ حَقّ ، مارس ٢٠٢٠